جامعة المنصورة
كليـة الآداب

قيم السيادة في وصايا خلفاء بني العباس(وصايا الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور لابنه المهدي نموذجاً) دراسة في الرؤية.

إعـــداد
الدكتورة/ فاطمة السراحنه
كلية الآداب – الجامعة الهاشمية

مجـلة كلـية الآداب – جامعـة المنصـورة
العدد الثالث و الستون – أغسطس ٢٠١٨

قيم السيادة في وصايا خلفاء بني العباس
(وصايا الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور لابنه المهدي نموذجاً)
دراسة في الرؤية.

د/ فاطمة السراحنه

ملخص البحث:

تنتظم هذه الدراسة في باب إظهار اهتمام خلفاء بني العباس بأبنائهم منذ باكورة الدولة العباسية بالعناية وتذكية سلوكهم والارتقاء بهم: فكراً، وخلقاً، ومنهج حياة؛ فالسيادة كما يرى الخليفة العباسي المنصور تسمو بالأخلاق والقيم الرفيعة، وتتكئ على كل خليقة: كتقوى الله، وتعلم العلم والعمل به، ومجالسة أهل العلم، وتجنب الشّر؛ وذلك باستصلاح الناس بالسّيرة العبقة الحسنة، وتأخذ هذه القيم صور الوصايا النثرية تصدر من الآباء بعدما اعتركوا الحياة وجابهوا عويصها.

والملاحظ أنّ الأبناء (ولاة العهد) ومنهم: المهدي قد أفادوا من تحذيرات آبائهم الخلفاء، ووَرّثوا تلك الوصايا المحفوظة لأبنائهم فيما بعد. وهكذا لا تختلف وصايا الآباء عامة لأبنائهم في طبيعة حرصها وتوجيهاتها لأبنائهم وإن كانوا في مقام القيادة والسلطة والحُكم، فالوصايا عبارات نفيسة تكتب بمداد من ذهب.

الكلمات المفتاحية: *السيادة، وصايا، الخليفة العباسي المنصور.*

Abstract

This study shows the care of the successors of bani Al Abass to their sons since the beginning of establishment their country by paying attention to their behavior and upgrading them thought, creation, and a way of life; in that days the power was superior to ethics and high values. These values took the pictures of the proverbs from parents after they have come to life and confronted them. Sons of the Covenant reported the warnings of their forefathers, who inherited the commandments that were kept for their sons. Thus, the commandments of the fathers in general do not differ for their sons in the nature of their care and guidance, although they are in the place of leadership, power and governance.

المقدمـــة :

ارتبطت السيادة بالهيمنة والسلطة والسطوة، كما منحت هذه اللفظة لأصحابها، وهم من ذوي المقامات السامية، حرية في التصرف كبيرة، فمن يخضعون لهم من الرعية يلتزمون بطاعتهم والرضوخ لهم، والانقياد لأوامرهم.

وقد شهدت الوصايا اهتماماً في العصر العباسي، وأهمها تلك الوصايا التي صدرت من الخلفاء إلى أبنائهم وبخاصة الخليفة العباسي المنصور الذي وجهها لابنه المهدي، موضوع الدراسة، وأهمية هذه الوصايا تنبع في تمثيلها لمظاهر العناية بوسائل الارتقاء بالبشرية، وبناء الحضارة ، وتجمع بين الدين والدنيا. وتحمل وصايا الخليفة العباسي خصوصية؛ فهي تصدر من الخليفة العباسي وتقدم لابنه بغية ديمومته في الملك واستمراره، وتحرص على الرعية، وتحمل عاطفة أبوة صادقة، كما أنها تصدر من خليفة اليوم الذي يوشك على الارتحال أو اقتربت ساعة موته إلى خليفة الغد؛ للمحافظة على ميراث الخلافة الذي يتهافت عليه الطامعون، وقد ارتكزت على قيم السيادة وآدابها، والسيادة لفظة تحمل في طياتها ما يدل على صاحب الجاه والمكانة والرفعة. وقد عنيت مثل هذه الوصايا بمضامين رفيعة، كما بنيت بناءً فنياً متمايزاً.

تسعى هذه الدراسة إلى الاهتمام بتلك الوصايا الصادرة من الخليفة المنصور إلى ابنه المهدي

من كتب مختلفة، ومعرفة القضايا التي شغلته. والوصايا فن مستقل بحد ذاتها، يستغلها الموصي لفرض فكرة، ضمن سياق فني له صفاته.

وتعتمد هذه الدراسة منهج تضافر المعارف؛ فأفادت من الدراسات المختلفة: التاريخية، والاجتماعية، والنفسية، والسيمائية والثقافية، وتحليل الخطاب، أو أي منهج يعنى بالشكل والمضمون.

أولاً: مفهوم السيادة

السيادة لغة من سود، يُقال: فلان سيّد قومه إذا أريد به الحال، وسائد إذا أريد الاستقبال، والجمع سادة.[١]. وذهب آخرون في معنى السّيد غير مذهب، فالذي يفوق غيره بالعقل والمال والدفع والنفع، والمعطي ماله في حقوقه المعين بنفسه ، والسّيد الملك والسخي[٢] .

والسّيد(كذلك) لفظة تطلق على الرّب والمالك والشريف والفاضل والكريم والحليم ومحتمل أذى قومه والزوج والرئيس والمقدم، وأصله من ساد فهو سَيْود، والزعامة السيادة والرياسة[٣]. ووردت في المعجم الوسيط من ساد وسؤدداً وهو الشرف والمجد وأسودَ أي صار سيدهم[٤].

وتُعدّ السّلطة ظاهرة اجتماعية، فلا تقوم بدون جماعة، ولاتنهض الجماعة إلا إذا وجدت سلطة تهتم بشأنها[٥]. وترتبط السيادة بالهيبة، والهيبة تتحقق بالحب والخوف" فالشعب قد يهاب حاكمه لأنه يحبه، وقد يهابه لأنه يخشاه"[٦].

وتقترن السلطة السياسية ووجود الدول بالسيادة وهي متصلة بالمجتمع، وهكذا يمثل الفرد حجر الزاوية في بناء المجتمع، ولا يمكن تصور السيادة إلا إذا وجد الشخص أو الجماعة التي تمارس أعمالها على باقي أفراد المجتمع وإلزامهم بالانصياع لأمرهم.[٧].

وهكذا فإنّ السيادة اصطلاحاً كلمة لاتينة تعبر عن صفة من له السلطة العليا واليد الطولى، ويستمدها من ذاته ولا يشاركه فيها غيره، و" السلطة العليا المطلقة التي تفردت وحدها بالحق في إنشاء الخطاب الملزم المتعلق بالحكم على الأشياء والأفعال"[٨].

ثانياً: مفهوم الوصية :

اشتقت الوصية من " وصي" ولغة تعني الوصل" الواو والصاد والياء أصل يدل على وصل شئ بشئ، ووصيت الشئ وصلته"[٩]، وأكد المعنى نفسه الزمخشري:" وصى الشئ: وصله"[١٠].

أما الوصية في لسان العرب فتعني العهد، وأوصى الرجل توصية:عهد، وتأتي بمعنى الفرض، كما في قوله تعالى:" يوصيكم الله..."، وما أَوْصَيْتَ به، وسميت وصية لاتصالها بأمر المتوفى"[١١]، في حين نجد الوصية في المعجم الوسيط:" قول فيه دعاء إلى صلاح ونهي عن فساد" [١٢].

ومما يلاجظ " أن الوصية قد قرنت إلى الموت، ولكنها لم تقتصر على ما يوجهه الإنسان إلى خلفائه في هذا المقام، بل توسع في الاستعمال في كل قول عزيز يحرص الموصي على توجيهه إلى المُوصى له. على أن استعمال" التوصية" ظلّ مرتبطاً بإرادة الخير، والتوجيه نحو ما هو واجب من فضائل والسلوك"[١٣].

وهي ضرب من الخطابة تقتصر على المقربين من أهل وأصدقاء، تشيع فيها الحكمة ونفاذ الفكر،

وتمتاز برقتها وتناسب جملها[١٤]، والفرق بينهما أن الخطبة يقصد بها جمع من الناس ، وحثهم على أمر من الأمور العامة التي تتعلق بشؤون الدنيا والدين، في حين أن الوصية يقولها شخص لعشيرته أو زوجته أو بنيه في أمر من أمورهم الخاصة عند إحساسه بدنو الأجل أو الرحيل إلى مكان آخر[١٥].

وتعرف الوصايا أدبياً، أيضاً، بكلام مستخلص من تجارب الحياة" يقوله من عُرف بين الناس بحكمته الدقيقة، ونظرته الثاقبة، وتقديره السديد للأمور التي مارسها ووقف على كنهها وأسرارها، ليهتدي بها من يعقبه، ويتخذها دليلاً في مسار حياته، وليتجنب الوقوع في المأزق والأخطاء"[١٦] .

وهكذا فإن الوصية الأدبية:" نوع من أنواع الأدب الحي الرفيع المنزلة، تنتقي ألفاظها انتقاءً ممتازاً، يطلقها مجرب حياة ومختبر دنيا، فيشرع فيها نهجاً قويماً وسلوكاً تنظيمياً لإنسان عزيز عليه أو مهم لديه، يبصره ما ينبغي عليه أن يفعله فيما يستقبل من حياة، إذ ادلهم خطب، أو حزب أمر في مجالات الحياة المتعددة الأطراف، المترامية الجوانب"[١٧].

والوصايا تختلف من حيث الموصى إليه وعلاقته بالموصي، فهي قسمان: خاصة وعامة، والخاصة منها: موجهة إلى شخص معين، وتتضمن توجيه النظر إلى محاسن الأخلاق، كالتي تصدر من الأب لابنه، في حين تكون العامة: موجهة إلى فئة من الناس أو إلى الناس بوجه عام، وتتضمن نصائح دينية أو دنيوية"[١٨]، والوصايا وصيتان ترتبط بصلة وثيقة بالأموات والأحياء، فوصية الأحياء:" للأحياء وهي أدب، وأمر بالمعروف ونهي عن منكر، وتحذير من زلل، وتبصرة بعمل صالح، ووصية الأموات للأحياء عند الموت بحق يجب أداؤه ودين يجب عليهم قضاؤه"[١٩].

والوصايا تسجيل صادق على طبيعة حياة العرب البسيطة، وتسعى لمراعاة قيمهم الأخلاقية، كما تعنى بالخصال الحميدة ومكارم الأخلاق، فقد كان اللجوء لتلك الوصايا وسيلة استجلاب للأمن والطمأنينة، وتبرئة الذمة، واستجابة لسعي الموصي للمصلحة، وقد حفظ التاريخ ثلة من الوصايا ذات الصلة بالحياة العربية التي تعكس تطور القيم والمواقف الصادقة لأنماط العلاقات الإنسانية[٢٠].

وقد لبّت الوصايا حاجات الإنسان العربي، فهي حاجة من حاجات الحياة الاجتماعية والسياسية التي استدعتها طبيعة حياتهم التي تضج بالرحيل والتنقل، وترتبط بأمر مصيري؛ كالزواج، كما كانت تتصل بمواضيع مهمة في لحظتها، فغالباً ما تكون من شخص أسنّ، وأشرف على الموت، وهي امتداد للفطرة السوية" ولو تتبعنا أصولها ومصادرها الحقيقية لوجدنا أنها ممتدة مع امتداد رسالة الأنبياء والمرسلين في الأرض"[٢١].

ثالثاً: مضامين وصايا الخليفة العباسي المنصور لابنه:

ومن النصوص التي عنيت بقيم السيادة، وتتصل بخلفاء العباسيين، وصايا الخليفة العباسي المنصور لابنه المهدي، ويُعدّ الخليفة العباسي المنصور المؤسس الحقيقي للدولة العباسية؛ فقد وطّد أركانها، وحاول أن يضع حداً لأعدائها ، وقد

خلّدت كتب التراث وصايا ثمينة قدمها لوريث عرشه المهدي، يحذره ويحرص عليه ويدعوه لتعهد شؤون الحكم وتدبيرها، كما تعنى تلك الوصايا بأمور الرعية.

ويُعرف الخليفة العباسي الثاني أبو جعفر المنصور بأنه من دهاة العرب: سديد الرأي ؛ وأريب مصيب، مقدم في علم الكلام[٢٢]، كما وصف أنه من أحسن الناس خلقاً، وأشدهم احتمالاً[٢٣]، و" كان المنصور في أول النهار يتصدى للأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر بالولايات والعزل والنظر في مصالح العامة"[٢٤]، وقد عني بوعاظ عصره وعلمائه وانعكس هذا عليه علماً وفقهاً وأدباً[٢٥]. " وكان قد روى العلم، وعرف الحلال والحرام، وساس هو وبنوه ملكهم سياسة الملوك"[٢٦].

وقد انتهج الخليفة أبو جعفر المنصور نهجاً في مضامين وصاياه لابنه، فهو يجمع بين الواقع بظروفه المختلفة والمثالية؛ فالإحسان والعمل في الحياة الدنيا ينعكس على الآخرة فوزاً ورضا ، وقد ظهرت أهمية وصايا الخليفة العباسي المنصور في سعيه من ورائها إلى نقل خبرته في مجال السلطة وعلاقته الإنسانية؛ فاجتمعت فيها الحكمة وتنظيم الحياة السياسية وتدبير شؤونها، كما أسهمت في إبراز البعد النفسي والعاطفي. ولعلّ من أكثر المضامين ظهوراً:

أولاً: البعد الديني : التقوى ، يوم القيامة، العدل

أحاط الخلفاء العباسيون أنفسهم بهالة من الدين، فكان الدين القيمة الثقافية العليا، وتمسكوا بالإسلام، ومرجعهم القرآن والحديث النبوي مما يبرز قوة الإيمان وهيبته ممزوجة بأبهة السلطان والسيادة، فظهرت القيم الأخلاقية والمُثل في أفعالهم وأقوالهم، وهكذا فقد ساست الدولة العباسية سياسة امتزجت فيها الدين بالملك، والرغبة بالرهبة" إلا أنها كانت دولة كثيرة المحاسن، جمة المكارم، أسواق العلوم قائمة... وبضائع الآداب نافقة، وشعائر الدين معظمة"[٢٧].

إذن، فقد نهلت وصايا الخليفة العباسي المنصور من هذا المعين الثرّ ذي الطابع الإسلامي؛ فهو يؤكد أهمية التقوى وكأنها منطلق الخلافة والسيادة، وينبع من ذلك الإحساس الدائم برقابة الله، فيأوي إلى ركن شديد وهو الخضوع لله، الذي يعني الانسياق للمبادئ والقواعد المنظمة للسلوك البشري، التي يحددها الدين القويم؛ كما يقترن الدين بالأخلاق السامية، ويتمثل في أساليب التعامل، ويتحقق بذلك تماسك المجتمع والسلطة، يقول:" إنّ أميرَ المؤمنين يُوصيك بتقوى اللهِ في البلادِ، والعملِ بطاعتِه في العبادِ"[٢٨] ، ويقول في موطن آخر:" يا أبا عبدالله، اتقِ اللهِ فيما أعهدُ إليكَ من أمورِ المسلمين بعدي، يجعل لك فيما كربك وحزنك مخرجاً، ويرزقك السلامة، وحسن العاقبة من حيث لا تحتسب"[٢٩] ، ويقول في موضع ثالث" واعلمْ أنّ الخليفةَ لا تصلحه إلا التقوى"[٣٠].

وهكذا فإنّ الخليفة المنصور تنبّه إلى أهمية الدين في توطيد أركان الدولة وتثبيتها، فهو المحرك لإعطاء السلطة طاقة روحية، وكسب احترام الرعية، ولذلك لجأ إلى نصح ابنه دينياً وتوجيهه

إلى إقامة الشعائر، والتحذير من ارتكاب الذنوب؛ فالوصايا تحرص على جملة من القيم، وهي أشبه بدستور ومنهج متكامل شمل جوانب من شخصية الحاكم القيادي الذي يلتفت إلى دقائق الأمور، فالتقوى، وتطبيقها ووضعها نصب عيني الموصي بشكل دائم من أهم ما شددت عليه ، والتذكير بما سيؤول إليه الخليفة إن تجبّر ووقع في الوزر والإثم. فالمظلوم سيقتصّ من الظالمين، ولذلك فأصحاب السيادة والسلطان أدعى أن يتمسكوا بالحق وبالهدى؛ لأنّ الرعية ستحاكي أعمال الخليفة وعماله وهنا يكمن الخطر ، يقول:

"اسْتعَنْ باللهِ على دِينك، وتقرّب به إلى ربّك ونفْسِك، فخذْ منها، ولا تجعلها للهوى، ولن تعملَ الشّرّ قامعاً، فليس أحد أكثر وزراً، ولا أعز إثماً ، ولا أعظم مصيبة، ولا أجل رزيئة منك، لتكاثف ذنوبك وتضاعف أعمالك، إذ قلدك الله الرعية تحكم فيها بمثل الذّرّة، فَيَقْتصون منك أجْمعون، وتُكافي على أفعالِ وُلاتك الظالمين"[٣١] .

ومن أهم الوصايا تلك التي يوصي بها ابنه المهدي ، ويسند له الحكم، ويطلب له السمع والطاعة ممن يحيطون به من عشيرته المقربين، وقد بدأ وصيته بالتذكير بعواقب الخروج على أمر الله وعصيانه، فحذره من الحسرة والندامة يوم القيامة، وما سيؤول إليه من عقاب إن تتابعت عليه الذنوب، وذكّر بالنبي محمد وما أوصى به من الالتزام بأمر الله واجتناب نواهيه، والحفاظ على الطريق القويم دين التوحيد. إن الخليفة في رحلة الخلافة استقامت له الأمور بفضل تتبعه لخطا النبي عليه السلام في منهج حياته وحسن خُلقه؛ لما فيه من وسائل الحماية والوقاية، فإن سلك سلوك النبي القويم ، فسيحقق بقية ما بقى من مكارم الأخلاق، ويفرض تتبع النبي قدراً عظيماً من الحماية ، والسير ضمن ضوابط السلامة وتحقيق العدل، وهكذا فإن من يستحق السيادة من يتمسك بالأخلاق، يقول: "احفظ يا بني محمداً صلى الله عليه وسلم في أمته، يحفظ الله عليك أمورك، وإياك والدم الحرام، فإنه حُوبٌ عند الله عظيم، وعارٌ في الدنيا لازم مقيم، والزم الحلال، فإن فيه ثوابك في الآجل، وصلاحك في العاجل، وأقم الحدود..."[٣٢] .

وتتكشف بالقراءة الداخلية أنساق متضادة متصارعة توضح موقف الإنسان منذ الأزل من إشكالية الوجود، فالوجود الإنساني يتصدع بعيداً عن الأخلاق الرفيعة والقيم الأصيلة وكل ما حثّ عليه الدين.

والخليفة يُلحّ على تطبيق الحدود؛ للأمان الذي توفره للدولة، وما يكمن وراءها من مصالح عظيمة، وهي ترتبط بما حرم الله ونهاها والعقوبة التي تحل بمنتهكها؛ فالله عزوجل واضع هذه القوانين لمعرفته بصلاحها للمجتمع وإن خفيت عليهم، وفيها تنفيذ لأوامر الله، والخليفة لابدّ ألا يتجاوز شرع الله؛ فهو حبل الله المتين وعروته الوثقى، ومن هنا فقد عاب على أعداء الدولة ارتكابهم للشرور، فإذا كانت مهمة الخليفة العظمى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كان من الطبيعي أن يحثّ الخليفة ابنه على أن يضرب بيد من حديد على يد الخارجين على الدولة من المارقين والملحدين؛ لأنهم يفسدون في الأرض،

ويتصـفون بالحقـد والخيانـة واتفـاقهم علـى الشّـرّ والأذى، وواجـب الخليفـة الـذود عـن الإسـلام مـن مثـل هـذه الآفـات، ويسـفه آراء هـؤلاء وعقائـدهم، يقول:" فالسُّلطانُ يا بُني حبلُ اللهِ المتينِ، وعروتُه الوثقى، ودينُ اللهِ القيمِ، فاحفظْه وحُطْه، وحصّنه وذب عنـه، وأوقـع بالملحدين فيـه، وأقمـع المـارقين منـه، واقتل الخـارجين عنـه بالعقاب لهم والمثلات بهم، ولا تجـاوز مـا أمـر الله بـه فـي محكم القرآن، واحكم بالعدل ولاتُشْطط، فإن ذلك أقطع للشغب، وأحسم للعدو، وأنجـع فـي الـدواء"[٣٣]، ويقـول فـي وصـية أخرى مؤكدا المعنـى نفسـه:" ولا تـنس مـع نصيبك من الدنيا نصيبك من رحمة الله"[٣٤].

وممـا يـذكر أن الخليفـة المنصـور اسـتطاع أن يقضـي علـى معظـم الحركـات التـي تمثل الوثنيـة التـي قامـت فـي عصـره مـن مثـل: حركـة سنّباذ الذي ادّعى قدرته على هدم الكعبة، وادّعى كذلك أن أبـا مسـلم الخراسـاني لـم يمـت بعـد أن قتلـه الخليفـة أبـي جعفر المنصـور لإثارة الفتنـة[٣٥]، كمـا استطاع أن يقضي كذلك على أعتى الثورات التي شكلت خطـراً كبيـراً علـى الدولـة العباسـية، وهـي الحركة الرواندية.[٣٦]

ثانياً: السيادة والمال:

أولاً: المـال الـدعوة إلى الحفـاظ علـى النعمـة ورد المظالم إلى أهلها:

تنبـه الخليفـة العباسـي أبـو جعفـر المنصـور إلـى قيمـة مـوارد الدولـة الماليـة ، وأدرك أهميـة تنميتهـا وزيادتهـا؛ لمواكبـة أعبـاء الثـورات والحركـات التـي واجهتها الدولة، فقد" عُرف المنصور بحسن تدبيره للمـال حتـى لا ينفقـه فـي غيـر جهتـه، ممـا جعـل خزائنـه تمتلـئ بـالأموال، فتـرك لابنـه المهدي زخـراً وخزانـة عـامرة ينفق منها عن سعة"[٣٧]، وهكذا فقد عرف المنصور بأنه رجل لم " يكن له في اللهو مجال... وهو كذلك لا يحب الشراب"[٣٨].

وبما أن حاجة الإنسان للمال حاجة ضرورية، لما يحققه من هدوء بـال وسـعادة وطمأنينـة واسـتقرار وتلبيـة حاجـات الإنسـان الأساسـية، أتـت إحـدى الوصايا في بُداءتها مشيرة إلى الركن الشديد الذي يـأوي إليـه السـادة فينمـي لـديهم شـعوراً بـالحرص والمسـؤولية علـى ذواتهـم وأقـوامهم، ويتمثـل فـي التأكيد على رد المظالم إلى أصحابها، ولما له من دور فـي مـنح الهيبـة والقـدر والحمـد عنـد العامـة. يقول:" يا بني إني قد أفردت كل شئ أخذته من الناس على وجه الجناية والمصادرة، وكتبت عليه أسماء أصحابه، فإذا وليت أنت فأعده على أربابه لتدعو لك الناس ويحبونك"[٣٩].

وقـد حرصـت وصـايا الخليفـة العباسـي المنصـور لابنـه المهـدي علـى بيـان قيمـة المـال، فسـلطان المال يزول بالبطر والاستكبار والبغي، وينبع من كثرة المال ومصادره المتعددة التبذير والإسراف ، ويتـأتى البطـر مـن عـدم شكر النعمـة، وإنفـاق مـا سخره الله من نعم دون وعي وبلا هدف، ويمضي الموصي بالتكرار في تأسيس قيمة الرفض للبطر، ويبين أثره السلبي على النسق الجماعي.

وهكـذا قامـت الوصـية بالتوضـيح حينمـا ضـربت المثل على إهدار المال بصور البطر، وهذا يشير إلـى طبيعـة الإنسـان الجاحـد والمنكـر للـنعم، أمـا البقـاء الإنسـاني فيقـوم بـالقيم السـامية الرفيعـة

المؤسسة على الأخلاق وعلى رأسها تقدير النعمة؛ لما له من أثر في استقامة النفوس وتهذيبها، وهو الضامن لتنفيذ التشريع بالعدل، ولتوفير قواعد المساواة فتحفظ السادة من مزالق الشهوة وسطوة السلطة، كما حذّر من الركون إلى الدنيا والتهافت عليها. وهكذا فقد بدأت الوصية بالاستفهام الذي يفيد إثارة الموصي لقيم الحمد على عطاء الله والتواضع الذي يزداد بالشكر على النعم ، يقول: " يا أبا عبدالله، استقلالاً للمواهب، أم بَطَراً للنعمة، أم قلة علم بموضع المصيبة؟ كأنك جاهل بمالك وعَلَيْكَ، وهذا الذي أنت فيه عطاء من الله، إن شكرته عليه زادك، وإن عرفت موضع البلاء فيه عافاك"[٤٠].

والخليفة المنصور يستغلّ كل لحظة يضرب مثلاً، و ينطلق من لقطات حية من الواقع ليصل إلى تحقيق مبتغاه، فالنعم تدوم بالشكر، واصطناع الرجال يدوم بالاحترام، والنماء يُستجلب بالإحسان وصلة الرحم وإشراك بني العمومة في النعم، بعيداً عن التباغض؛ فحياة أهل السيادة تطيب بالعدالة وتحقيق الأمن المادي، إنّ الخليفة يقدّم نصائح مادية ترتبط بالمال والنفقة والتحذير المتكرر من التبذير، وبخاصة أنّ المآزق في الدول غير مضمونة، وللمال دور مهم في السيطرة على بطانته، وبسط نفوذه، ويتمثل التوزيع العادل للثروة المالية في توسيع معاش العامة، وتأمين السكن والمرافق، وفي أرزاق الجند، وتحصين الثغور، وضرورة مواجهة النفقات المتجددة للدولة، كما أن خزينة الدولة يجب أن تمتلئ بالمال؛ فموارد الدولة لايُستهان بها، والخزينة مظهر من مظاهر القوة، فطالما بيت المال عامر بالمال يبقى الخليفة عزيزاً، كما يعلي الغنى من شأن صاحبه. إنّ اقتناء الخليفة ، القادم إلى السّلطة، للثروة يمكنه من تحقيق غاياته، فالسّيادة وعزها يدوم بالمال والذكاء في توزيعه، والخليفة القادم مسخر لهذا الأمر.

" وعِفّ عنْ الفيءِ، فليسَ بِكَ إليهِ حاجةٌ معْ ما أخلفُه لكَ،وافتتحْ عملَك بِصلةِ الرّحمِ وبِرّ القرابةِ، وإياكَ والأثرةَ والتبذيرَ لأموالِ الرعيةِ، ...، ووسّع المعاشَ، وسكّن العامةَ، وأدخلْ المرافقَ عليهم، واصرفْ المكارِهَ عنهم، وأعدْ الأموالَ واخزُنْها، وإياكَ والتبذيرَ، فإنّ النوائبَ غيرُ مأمونةٍ، والحوادثُ غيرُ مضمونةٍ، وهيَ منْ شيَم الزمانِ"[٤١].

وقد اعتنت الدولة العباسية في باكورتها بكل ما يرتبط بالمال والأسواق وتنظيم الأسعار" كانت الشرطة تجوب أسواقها وشوارعها بأمر صاحب الشرطة لردع المخالفين وضبط الخطرين والمعربدين، وتطبيق أحكام الشرع فيمن يخرج عليه، أو يتجاوز حدوده، وكذلك يجوبها رجال المحتسب لمراقبة الأسواق، ومحاسبة كل مخالف أو مستغل أو مطفف، وللتأكد من نظافة وسلامة ما يقدم للناس والمآكل"[٤٢].

ثانياً: بغداد رأس المال للخلافة العباسية:

وتُعدّ مدينة بغداد رأس المال للخلافة العباسية، فقد حظيت مدينة بغداد بموقع محصن، ويعود بناؤه إلى الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور؛ إذ رغب في تأسيس مدينة يأمن فيه على نفسه وعلى جنده بعد الثورات التي قامت عليه وشكلت خطراً عظيماً، وطبيعتها سهلة مفتوحة وتقع بين نهرين

كبيـرين : دجلــة والفـرات، وقـد حشـد لبنائهـا المهندسـين والبنـائين والعمـال المهـرة، وجعـل لهـا أربعة أبواب، وكانت ملتقى للقوافل التجارية فكانت تمتلـئ بالبضـائع والخيـرات، وضـرب علـى سـائر المدينـة بسـور[٤٣] " ولمـا أتـم بناءهـا حشـر إليهـا المنصور العلماء من كل بلد، وإقليم، فأمّها أفواجاً، ولم تزلْ تتعاظمُ، ويزداد عمرانها حتى صارت أم الدنيا ، وسيدة البلاد، ومهد الحضارة الإسلامية في عهد الدولة العباسية"[٤٤]، ولذلك هي عاصمة الخلافة العباسية، ولم يكن انتقاء المدينة عشوائياً، فيحذره من تغيير المكان ومن الويلات التي ستجر عليـه إن بدلـه، فالمنعـة تكـون أساسـاً للسـيادة، يقول:

"وانظُرْ هذه المدينةَ، فإياك أن تستبدل بها، فإنها بيتك وعزك، قد جمعت لك فيها من الأموال، ما إن كسر عليك الخراج عشر سنين، كان عندك كفايـة لأرزاق الجنـد والنفقـات، وعطـاء الذريـة، ومصلحة الثغور، فاحتفظ بها فإنك لا تزال عزيزاً ما دام بيت مالك عامراً..."[٤٥].

ثالثاً: السيادة والآخر:

لا تقوم الأمم والحضارات إلا بالتعاضد والترابط وبوجود أفراد يجمعهم التعاون وتسودهم الألفة، وهم عناصر القوة، ويمثلون ضرباً من المنعة والقدرة على دفع العدوان ، ومن هنا فإن وصايا الخليفة تقوم في مركزيتها التي تتكئ عليها المحافظة على السلطة بالتآزر والتعاضد والمشاركة، والسلطة تستطيع أن تسيطر على العدد الكبير من الرعية بحسن الخلق، والقيم الإنسانية التي تسهل إعانة الأفراد، والبعد عن الأنانية التي تعزل السلطة عن الرعية.

ومعلوم أن الدولة العباسية قد اتسعت فشملت أجناس بشرية مختلفة، امتزجت وانصهرت وشكلت في مجموعها الدولة العباسية القوية في باكورتها.

ويتهيأ للعدد والوحدة من الهيبة ما لايمكن حده في بناء حضارة مكتملة البناء سليمة الأسس؛ فالأخلاق والوحدة والعدد ترفع السلطة فكراً وواقعاً ومنزلةً؛ فتكون قوة بعد ضعف، وعلماً بعد جهل، وتقدماً بعد تأخر، وغنى بعد فقر. وقد حرص الخليفة المنصور على وحدة البيت العباسي، فحضّ ابنه على الإحسان إلى أهل بيته المقربين، وتقديمهم وتعظيم أمرهم، وأن يخصهم في توليتهم على المنابر، ويدخل هذا في باب الحكمة، فيجمع أقاربه على حبه، وتلهج ألسنتهم بحمده والإعلاء من أمره " أوصيكَ بأهلِ بيتِك، أنْ تُظْهِر كرامتَهم وتقدمَهم، وتُكثِر الإحسانَ إليهم، وتُعظّمَ أمرَهم، وتوطئَ الناسَ أعقابَهم، وتوليهم المنابرَ، فإنّ عزّك عزهم، وذكرَهم لك".[٤٦].

ويُعدّ أهل الدين أداة مهمة في توطيد السلطة واستقرارها، وركناً لإقامة الممالك؛ فالمنابر وسيلة إعلامية لتثبيت أركان الدولة والدفاع عنها:" وأهل الدين، فَلْيكُونوا أعضادَك، وأعْطِ حظّ المسلمين من أموالِهم، ووفرْ لهم فَيْأهُم، وتابعْ أعطياتِهم عليهم، وعجّلْ بنفقاتِهم إليهم سنةً سنةً، وشهراً شهراً. وعليكَ بعمارةِ البلادِ بتخفيفِ الخراجِ، واستصلحْ الناسَ بالسيرةِ الحسنةِ والسياسةِ الجميلةِ، وليكُنْ أهمُ أمورِك إليك تحفّظ أطرافك، وسدّ ثغورك وأكماش بُعوثِك"[٤٧].

ولا يمكن أن يقوم الحكم إلا بقاعدة جماهيرية" الرعية" ، ورضاهم غاية لا تدرك، ويكون التحبب إليهم بالمال والإحسان والعدل وتفقد الكبير والصغير، وأن يتخير من بينهم الفاضل في ولاية أموره ، يقول" واعلمْ أنّ رضا الناسِ غايةٌ لا تدرك، فتحبّب إليهم بالإحسانِ جهدك، وثبّت فيما يَرِدُ من أمورِهم عليك، ووكّلْ همومَك بأمورك، وتفقد الصغير، تفقّدك الكبير..."[٤٨].

توحي وصية أخرى بالتدرج في السياسة التي يتبعها الخليفة، فأموره تقوم على تعظيم حرمات الله وإعمال العقل؛ ليجمع قلوب الأمة على حبه وينعكس بره على الرعية خيراً وصلاحاً وتسامحاً، وجعل صفة التقوى أعلى المراتب، وهكذا فإن الخليفة يرى الله في أعماله وتصرفاته : كبيرها وصغيرها، فإن كان الخليفة على نصيب كبير من التقوى، تذل له رقاب العباد، ويتصدى للظلم، ثم يشيد بذكر السماحة والعفو عند المقدرة؛ لأن الخليفة ملجأ الضعفاء والفقراء والمساكين، وهو يكشف الظلم عن الجميع. إن الخليفة في وصيته يؤمن باختلاف الطبيعة البشرية وبناء عليها تختلف وسائل التعامل و العقاب، وتكشف هذه الوصية صورة من الصراع المبطن الخفي، وممارسة الساسة سياسة البطش، وما ينشأ عنها من خوف وقمع للحرية، والتحكم بمصائر الآخرين، يقول:" يا بُني لا تُبرم أمراً حتى تُفكر فيه، فإنّ فكرةَ العاقلِ مرآةٌ تُريه حسناته وسيئاته، واعلمْ أنّ الخليفةَ لا تُصلحه إلا التقوى، والسلطانَ لا تُصلحه إلا الطاعة، والرعيةَ لا يصلحها إلا العدل، وأولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة، وأنقص الناس عقلاً من ظلم من هو دونه"[٤٩].

وتكون السّلطة معرضة للمخاطر أيضاً، ولا بدّ من سياسة تحميها من أي عارض فتنة؛ كالمرواغات الفكرية. وتقتضي السياسة الذكية العدل في توزيع المال والثروة، وتعد من وسائل الإغراء في التعاطي مع الرعية، ولا بدّ من تقريب أهل الشرف ومعاملتهم بالملاينة، وتلك من الحلول التي اقتراحها الخليفة في مواجهة ابنه لأي طارئ؛ لذا فهو يوصيه بمن يصطفيهم لمجالسته من الخاصة: ذوي الشرف والرفعة من النصحاء وأهل العلم والمشورة، والموالي من أهل خراسان؛ لأهميتهم في الحفاظ على سيادة السلطة، وتقوية شوكتها، كما دعا الخليفة ابنه إلى تقريب النصحاء من الرعية، وأن يستثمر خبرتهم وتجاربهم، فالذكاء في موقف السيادة يتطلب الدهاء، وأن يتعهد من يحميه بالرعاية، والمفسد يجب أن يتموضع تحت فعل المراقبة والإقصاء فيما بعد، فضرره أكثر من نفعه، إن السيادة تتطلب الحيطة واليقظة " وانظرْ مواليكَ، فأحسنْ إليهم وقرّبهم، فإنهم مادتُك لشدّةٍ إنْ نزلت بك "[٥٠].

وقد وصف الجاحظ الدولة العباسية في تركيبها الحضاري والإنساني" بأنها عجمية خراسانية"[٥١]

وبيّن الخليفة المنصور أن ذهاب السّلطة يكون بأمور لابدّ من الحرص والاحتراس منها، فعلى الخليفة أن يعوّد نفسه الصبر على التعب في إصلاح من يحيطون به في معاملتهم بين الخوف والرجاء؛ فالسياسة التي لا تتهيأ لها أساليب الضبط ، ويغلب عليها الضعف من الخليفة، وفقد

خيار الأعوان؛ أصحاب العقول الراجحة، ستجعل الرعية برجالها ينقلبون على السلطة، وتتحقق للمنقلبين الغلبة بالإجماع. ويخسر الحاكم الولاء الذي يحتاجه حتى يستمر وجوده، والخليفة المنصور ينتقد من يحيطون بالخليفة من عمال وولاة ووزراء، فهم يستغلون مناصبهم في الإيذاء وتحقيق مآربهم، وتزيين المساؤئ للخليفة :" واعلمْ أنّ ذهابَ السلطانِ يُؤتى من ثلاثةِ أمورٍ: قلةِ الحزمِ، وضعفِ العزمِ، وفقْدِ صالحِ الأعوانِ، وإن ثباته بأربع خلال: المعرفة، وحسن التخيّر، وإمضاءِ الاختيارِ، وتنكُّبِ أهلِ الحريص، فإنّ الحريصَ لايبيعك باليسيرِ من حظهِ وشرِه، والوزراء أضرّ الأعداءِ، ومن خانك كذبك، ومن كذبك غشك"[٥٢].

وبما أن الدولة العباسية شهدت فتناً داخلية، وكانت علاقتها مع الروم مضطربة، والروم أعداء الدولة خارجياً، فقد نشأ عن صراع الثغور بين العرب والروم الاهتمام بالجنود المقاتلين ، وشحن الثغور وحماية الحدود، والمعروف أن الصراع بين العرب والروم قديم ولم يظهر أبان الحكم العباسي، فقد " كانت المواقع الدفاعية التي تقع على الحدود بين العرب والروم تسمى الثغور. وفي هذه المواقع كانت تنشأ الأربطة، وهي أماكن تجمع المسلمين الذين نذروا أنفسهم للجهاد بوازع شخصي. أما الثغور فكانت مواقع محصنة بالأسوار والقلاع، وفيها المحاربون المرتزقة، الذين تندبهم الدولة لحراسة الحدود وتجري لهم رواتب"[٥٣]، يقول الخليفة المنصور موصياً :" واشحن الثغور، واضبط الأطراف، وامن السبل،...، وأعد الكراع، والجند ما استطعت، وإياك وتأخير عمل اليوم إلى غد فتتدارك عليك الأمور وتضيع"[٥٤].

ويبين لابنه عناصر قوة الخلافة والسلطة ونصرتها، ويكمن بتفقد الجيوش بشكل دائم في الليل والنهار بعد الاتكال على الله، والاستعداد للمعركة للدفاع عن الدين بالسلاح، وتهيئة الجانب المعنوي الذي يعني الكثير للجنود، فقد وظفها هنا إشارة من طرف خفي إلى من يحيط بهم من خطر خارجي داهم ، فقد حظي الجنود بدور كبير في قيام الدولة العباسية، كما لعبوا دوراً في أحداث الدولة، يقول الخليفة محذراً، ومستعيناً بالقرآن: "وأرغب إلى الله عزوجل في الجهاد والمحاماة عن دينه، وإهلاك عدوه بما يفتح الله على المسلمين، ويمكن لهم في الدين، وابذل في ذلك مهجتك ونجدتك ومالك، وتفقد جيوشك ليلك ونهارك ، واصرف مراكز خيلك، ومواطن رحلك ، وبالله فليكن عصمتك وحولك وقوتك ، وعليه فليكن ثقتك واقتدارك وتوكلك، فإنه يكفيك ويغينك وينصرك، وكفى به مؤيداً ونصيراً"[٥٥]. "

ومن اليقظة والحكمة عدم تأخير الأمور وإحكامها أولاً بأول، وهذا يستدعي وجود عيون يعسون في الليل والنهار لمصلحة أمن الراعي والرعية، واليقظة الدائمة تتطلب عدم الركون إلى الكسل والدعة، فالخلافة مسؤولية عظيمة تتطلب الحذر واليقظة وقلة النوم والبعد عن اللهو. كما لا يتخفى الخليفة_ في الوقت نفسه_ عن أعين المحتاجين لحمايتهم وإلا انتشر الظلم وكثرت الشكوى، "جِدْ في إحكامِ الأمورِ النازلاتِ لأوقاتِها أولاً فأولاً، واجْتهِدْ وشّمر فيها، وأعددْ رجالاً بالليل لمعرفة ما

يكون بالنهار، ورجالاً بالنهار لمعرفة ما يكون بالليل،... وباشِر الأمورَ بنفسِك ولا تفجرْ، ولا تكسلْ، ولا تفشلْ، واستعملْ حسنَ الظّنِ بربك، وأسِئ الظّن بعمالِك وكتابِك، وخُذ نفسك بالتيقّظ، وتفقد من يبيتُ على بابِك، وسهّلْ إذنك للناس، وانظر في أمرِ النُّزَّاع إليك، ونفساً غير لاهية، ولا تنم، فإنّ أباك لم ينمْ منذ وُلي الخلافةَ، ولا دخل عينه غمض إلا وقلبه مستيقظٌ"[٥٦].

إن الوصايا على اختلافها متقاربة في معانيها ومضامينها،" وقد تكون وصايا الآباء الخلفاء إلى الأبناء(ولاة العهد) متميزة عن غيرها من وصايا الخلفاء؛ وذلك لما فيها من الإعداد والتوجيه إلى الآداب السلطانية في سياسة الرعية. وغيرها من الأمور التي تعد (ولي العهد) إلى تولي الحكم"[٥٧]. فالخليفة المنصور المتصف بحزمه يستفزّ ابنه بالاستفهام والحوار لإثارته ولفت انتباهه، فمن التضييع أن لايدرك ولي العهد ما خوله الله، يقول الخليفة:" كم راية عندك؟ قال: لا أدري، قال: هذا والله التضييع، أنت لأمر الخلافة أشد تضييعاً، ولكن قد جمعت لك ما لا يضرك معه ما ضيعت، فاتق الله فيما خوّلك"[٥٨].

ويُعدُّ الوقوع في الخطأ أمراً طبيعياً، لأنه يدخل في الطبيعة السلوكية في التصرف، إلا أن الخليفة حذّر من الانزالق في الخطأ المرة تلو الأخرى، ويكون ذلك بحسن التخطيط، وإعادة النظر في التصرف بحسَ إيجابي بعيداً عن التخبط لتجنب الوقوع في الخطأ، ويؤدي هذا الأمر للتخفف من السلوكيات السيئة." يا أبا عبد الله ، ليس العاقل الذي يحتال للأمر الذي وقع فيه حتى يخرج منه، ولكنه الذي يحتال للأمر الذي غشيه حتى لا يقع فيه"[٥٩]

ثانياً: السيادة والقيم الأخلاقية :

وإذا كان الهدف الرئيسي من وصايا الخلفاء لأبنائهم الحفاظ على حياة أبنائهم وديمومة سلطتهم، فإنّ الخلفاء سعوا أيضاً لتنظيم شؤون الحياة، التي ترتكز على السلك القويم وحسن الأخلاق بِعدّها الدّعامة المهمة للبقاء، فالأمم نهضت وتطورت وازدهرت برفيع الأخلاق، وهكذا لم يدخر المنصور في وصيته شيئاً ليزيد ابنه شرفاً ورفعة وذكراً حسناً؛ فوصايا الخليفة المنصور لابنه تتأسس على محاور مهمة تقوم على الفعل الإنساني الرفيع والقيم الأخلاقية وعلاقتها بالديمومة والثبات فهي تضبط مطامع الإنسان وشهواته وتكبحهما، فالسيادة لا تعني القهر والغلبة.

إنّ الخليفة الأب يسعى في الوصايا على اختلاف مضامينها أن يجيب على سؤالين اثنيين، وهما : كيف للسلطة أن تحفظ سيادتها؟ وكيف لها أن تجعل الآخرين يحترمونها ويعزون من شأنها؟

إنّ شؤون الدولة وسياستها تقوم على مفاهيم مبثوثة في ثقافة الفكر العربي السائد في ذلك الزمن، ولذلك فإنّ مفهوم قبول الآخر واحترامه يمثل القيمة الكبرى لصنع عالم السّلطة الذي تتضخم فيه الذات(الخليفة) بعد علو شأنه من الآخر(قبيلته).

فالسيادة تتكئ على كل خليقة: تعلم العلم والعمل به، ومجالسة أهل العلم،و تجنب الشّر؛ وذلك

باستصلاح الناس بالسيرة العبقة الحسنة، وانصاف الناس؛ وذلك برد المظالم إلى أصحابها، والبعد عن مظاهر البطر والكبر؛ لأنه يبعد قلوب الرجال، والتواضع يقرب من الناس، والصفح عن المسئ، وحفظ الجار، ونصرة الموالي، واصطناع الرجال ومن قلل الشكر والحمد فهو داعية لكل إساءة و قطيعة .

وفي سبيل الحفاظ على الطاعة؛ فإنه يجب على الخليفة أن يقرب من أنس منه طاعة وولاءُ وانتماء بالسيرة الحسنة وتحسيين أوضاعهم ومراعاة مصالحهم العامة، ويصبر على ما يحل به من خطوب، ويحتمل المشاق، يقول:" واستصلح الناس بالسيرة الحسنة والسياسة الجميلة"[٦٠]

وتتجلى القيم الأخلاقية في أمور عدة ترتبط بحسن المعشر والإحسان والإنصاف الدائم، فالظلم يحيق بأهله، وتدور دوائره على صاحبه، كما أن السلوك المهذب من السلطة سيرتدّ عليها احتراماً وتقديراً ورفعةً وجذباً للرعية، ونشاطاً وعملاً، وعلى الراعي ألا يتساهل في معاملته لرعيته بالعدل والاعتناء بهم، ويتعهدهم بالرعاية والتقدير لما لهما من دور في الانقياد لأوامره، للمحافظه على أمنه وحتى يحموا ملكه ويبذلوا أرواحهم في سبيله، يقول: " ولتصدق لله نيتك، وتعظم إليه فاقتك، وليتسع إنصافك، وينبسط عدلك، ويؤمن ظلمك، وواس بين الرعية والاحتكام، واطلب بجهدك رضى الرحمن"[٦١].

ومن الأفكار التكرارية والمواقف الفكرية النبيلة التي يحرص الخليفة على توريثها لابنه، المحافظة على إغاثة الملهوف ومساعدة المحتاج، وهي من الأفكار التي تكشف معالم الصراع الإنساني، وما فيها من دفع الظلم عن المظلوم لضعفه وحمايته، فالسيادة القوية تعتني بالضعيف وتحقق الأمان لكل الأفراد، وتحدّ من بطش الظالمين وهيمنتهم، كما يدعو الخليفة المنصور إلى إظهار الحكمة وبعد النظر واليقظة، ولأهمية هذا الأمر جعله أمانة في عنقه؛ فالخليفة لم يَسُد قومه إلا بحفظه لسديد الأخلاق التي حثّ عليها والده الذي أثبت في وصاياه أخلاقه الرفيعة أيضاً، يقول:" وتفقد من يبيت على بابك، وسهل إذنك للناس، وانظر في أمر النزاع إليك، ووكل بهم عينا غير نائمة، ونفسا غير لاهية، ولا تنم، فإن أباك لم ينم منذ ولي الخلاقة، ولا دخل عينه غمض إلا وقلبه مستيقظ. هذه وصيتي إليك، والله خليفتي عليك"[٦٢].

ومما أوصى الخليفة المنصور ابنه، سلوك الاستقامة، ويتمثل في الإصابة في الأقوال والأعمال ظاهرها وباطنها، وترك المنهيات، وفعل الطاعات، أما السير على غير المنهج القويم، والطغيان فهما من الصور الأخرى للبعد عن الاستقامة ، وقد انعكست هذه الوصايا على حياة المهدي، وحققت وصايا والده مبتغاها، فقد : كان المهدي محبباً إلى الخاص والعام، وردّ الأموال إلى أصحابها، وأطلق المحبّسين، وأمّن الخائفين، ووصل المعدومين[٦٣].

رابعاً: سمات فنية في وصايا الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور:

تتكئ الوصايا على ثلة من السمات الفنية، فهي تتصف بالإيجاز والوضوح والدقة، ورقة الألفاظ،

وسهولة التعابير، كما اتصفت من جانب آخر بالطول والإطناب، إذا أرادت توضيحاً أو شرحاً أو تفسيراً أو تفصيلاً أو تعليلاً؛ والمقام في هذه الوصايا ينبع من خصوصية وضع السلطة وشدة حرصها على ولي العهد الابن، وبخاصة لحظات قرب الموصي من منيته.

وتراعي الوصايا الظاهرة العاطفية على اختلافها، وتنطوي على مجموعة من الاستعدادات الخطابية، وتكشف عن حضور انفعالات خاصة، ويستعير الموصي تعابير القرب الجسدي في إيحاءات العواطف والأحاسيس، فتغييب ذات الموصي تعني إثبات ذات الموصى إليه؛ فالموصي عادة ما يلجأ إلى الافتتاح باستخدام أسلوب النداء مع ابنه الذين يتجه إليه بالخطاب، إن الموقف التأثيري يخضع عادة لمنطق العواطف، وهذا الاستهلال الدائم بأدوات النداء وذكر الاسم ولفظة (بني) تختزل وسائل الإغراء ولفت الانتباة والإثارة وتحفز استغلال الاستمالة والقبول، ويعد النداء في مثل هذه الوصايا أسلوباً رائقاً يبعث على بث الألفة والحميمية والمودة في العلاقة الإنسانية، فكانت الوصايا في جملتها تحرص على البداية بتودد الأب لابنه حتى يلاقي القبول، وتشي تلك المقدمات بمهارة فائقة في مخاطبة عقل الموصى إليه واستلاب أحاسيسه بذكاء، يقول: (يا بُني، يا أبا عبد الله،) مؤكداً على ضرورة أن ينهل من الأخلاق الحميدة والسمعة الحسنة في حياته السياسية حتى لا يضل، يقول :" يا أبا عبدالله، من أحبّ الحمد أحسن السيرة، ومن أبغض الحمد أساءها، وما أبغض أحد الحمد إلا استذم، وما استذم إلا كره"[٦٤].

ولنقل المشاعر والأحاسيس، وتعميق المشهد، ومنحه دفقة شعورية، فإنّ الصور والتشييهات والاستعارات كانت حاضرة، مما يحقق متعة جمالية في النص، وهذا سهّل وصول مطلبه إلى الموصى إليه بعبارة مفعمة بتكثيف الصورة الانفعالية، ويزدحم بالدلالات التي تكرس مفهوم السيادة وأبعادها، وقرب أهل السيادة من العلم، يقول في تأكيد أهمية العلم والحرص عليه، وفي تحذيره من الجهل:" فإن محمد بن شهاب الزهري قال: الحديث ذكر ولا يحبه إلا ذكور الرجال، ولا يبغضه إلا مؤنثوهم، وصدق أخو زهرة"[٦٥]، كما يربط بين فكرة العاقل والمرآة التي تعكس أفعال الإنسان: خيرها وشرها، يقول:" يا بني، لا تبرم أمراً حتى تفكر فيه، فإن فكرة العاقل مرآة تريه حسناته وسيئاته" [٦٦] .

كما يدعوه للتشمير عن دينه والذود عن حماه، يقول:"فعليك بالتشمير لدينك، والاجتهاد لنفسك، فافكك عنقك، وبادر يومك، واحذر غدك، واتق دنياك، فإنها دنيا غادرة موبقة"[٦٧]

وبما أن الوصايا تصدر من الآباء إلى أبنائهم، فإنها تتصف بصدق العاطفة، فهي تستغل اللحظة لتقديم التجربة؛ لتقود الموصى إليه إلى السعادة، يقول: "استعن بالله على دينك... فكأني بك وقد أوقفت بين يدي الجبار، وخذلك الأنصار، وأسلمك الأعوان، وطوقت حجتك، وقلت حيلتك، وأخذت منك الحقوق..." [٦٨].

والسلطة تمتاح من معين ثقافتها ومفردات السلطة والرعية، وتقيم جسراً قوياً مع معارفها المختلفة، فأفاد الخليفة من الموروثات الفكرية، حينما ذكّر المنصور ابنه بالقرآن في غير موضع؛ لُيحدث ضرباً من المشاركة الوجدانية تنسجم مع فكرة النص.

والملاحظ ما يلجأ إليه الموصي من اهتمام واضح بترديد المعنى الواحد في عبارات متعددة ومختلفة؛ توكيداً للمعاني، والتكرار وسيلة إصرار من الموصي في بثه لرسائل موجبة الاستجابة من الأبناء.

الخاتمة:

ارتبطت السيادة في وصايا الخليفة العباسي المنصور بمجموعة من الرؤى التي تضمن ديمومة أهل السلطة وبقائهم في الحكم؛ فهي تتكئ على: العدل والإنصاف، وتحقيق الأمن المادي، واصطناع الثقات من الرجال، ومكافأة الجند، والحرص على شكر النعم، والاستعداد للعدو.

وهذا لا ينفي أن الخليفة العباسي المنصور في كل الوصايا يحرص على مصلحة ابنه المهدي ويعظم من شأنه؛ وذلك للمسؤولية الزائدة التي تلقى على عاتقه وكاهله في المستقبل حينما سيتولى الخلافة.

ولعل من أهم الأمور التي نبه الخليفة ابنه عليها تتمثل في ضرورة الاعتصام بحبل الله، وإقامة شريعته في ممارسته للسياسة، فالقيام بتشريعات الدين تحمي الدولة وتوطد أركانها، كما أنها تُعدّ عنصراً من عناصر الجذب للرعية، وتضفي جواً من الزعامة الروحية. ومن ثم كانت الكثرة العددية مهمة في بسط السلطة لنفوذها، فالنماء بالعدد، واستجلاب الرحم وأبناء العمومة، ورجال الدين من الأمور المهمة.

أما فنياً فقد امتازت الوصايا بالألفاظ السهلة والبساطة، والإيجاز والتركيز والوضوح، وصدق العاطفة؛ وذلك لأنها تصدر من الأب لابنه.

المصادر والمراجع:

- إبراهيم أنيس،وآخرون، المعجم الوسيط، ط٢، مجمع اللغة العربية،القاهرة، ١٩٧٢
- أحمد أمين ،ضحى الإسلام، ط٧، مكتبة النهضة المصرية،مصر، ١٩٣٣
- ابن الأثير، علي بن محمد، أبو الحسن،(ت٦٣٠هـ) الكامل في التاريخ، صححه وراجعه: محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧.
- أيمن الورداني، حق الشعب في استرداد السيادة،ط١، مكتبة مدبولي، القاهرة، ٢٠٠
- ثروت بدوي ، النظم السياسية، ط١،دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٦.
- الجاحظ، أبو عثمان الجاحظ (٢٥٥) ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، ط٧، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٨
- الرازي، محمد بن أبي بكر(ت٦٦٦هـ)، مختار الصحاح،مكتبة لبنان، بيروت،١٩٨٦.
- الزبيدي،محمد بن عبد الرزاق المرتضى(ت١١٢٠٥هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس،تحقيق: علي شيري، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، ١٩٩٤.

- الزمخشري، محمود بن عمر(ت ٥٣٨هـ) ، أساس البلاغة، تحقيق: محمد باسل ،ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨.
- سهام الفريح ،الوصايا في الأدب العربي القديم، ط١،الكويت: مكتبة المعلا، الكويت، ١٩٨٨.
- ابن شاكر الكتبي،محمد بن شاكر بن أحمد(ت ٧٦٤هـ)، فوات الوفيات، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد،مطبعة السعادة ، مصر ، ١٩٦٣.
- الطبري، محمد جرير أبوجعفر(٣١٠هـ)، تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار المعارف، مصر، ١٩٦٦.
- ابن الطقطقي، محمد بن علب بن طباطبا أبوجعفر، (٧٠٩هـ)، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، (دط)، دار صادر، بيروت،(دت).
- ابن عبدربه، أحمد بن محمد أبو عمر شهاب الدين(٣٢٨هـ)، العقد الفريد، شرحه وضبطه: أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٢.
- عبد الرحيم صالح، فنون النثر في الأدب العباسي، ط١،وزارة الثقافة ، عمان، ١٩٩٤.
- عز الدين إسماعيل، في الأدب العباسي الرؤية والفن، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٥.
- عدنان النحوي ، أدب الوصايا والمواعظ، دار النحوي، الرياض، ١٩٩٨.
- ابن العماد الحنبلي، عبد الحي بن أحمد بن محمد(١٠٨٩هـ)،،شذرات الذهب في أخبار من ذهب، القاهرة، ١٣٥٠هـ.
- ابن فارس، أحمد بن فرس بن زكرياء أبو الحسين(٣٩٥هـ)، معجم مقاييس اللغة، ط، دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٢٢هـ.
- ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل(٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، ط٨، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٩٠.
- محمد خفاجي، الحياة الأدبية في العصر الجاهلي، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢.
- محمد الدليمي، جمهرة وصايا العرب(وصايا العصر العباسي، ووصايا عرب الأندلس)، ج٣، منشورات دار النضال للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩١ .
- محمد سلام، الأدب في عصر العباسيين(منذ قيام الدولة حتى نهاية القرن الثالث)، منشأة المعارف، الاسكندرية، ١٩٩٣.
- محمد عطية، الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي، مطبعة مصطفى الحلبي، القاهرة، ١٩٣٦.
- محمود الخالدي، قواعد نظام الحكم في الإسلام، ط٢، مكتبة المحتسب، عمان، ١٩٨٣ المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين(٣٤٦هـ) مروج الذهب، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، طبعة التحرير، القاهرة، ١٩٦٦.
- مصطفى أبو زيد، فن الحكم في الإسلام، المكتب المصري الحديث، ط١، ١٩٨١.

- ابـن منظـور، محمد بـن مكـرم جمـال الـدين(ت ٧١١هـ).(١٩٩٣) لســـــان العـــــرب، تحقيق:إحســان عبــاس، ط٣، دار صــادر، بيروت، **١٩٩٣**.
- ابـن منقذ، أسـامة بـن علـي(٥٨٤هـ)، لبـاب الآداب، تحقيـق: أحمـد محمد شاكر ،ط١، مكتبـة السنة، القاهرة.
- اليعقوبي، أحمد بن أبـي يعقوب(ت٢٨٤هـ)، تـاريخ اليعقـوبي،(دط) مطبعـة ليـدن، الهنـد، ١٨٨٣.
- يـــونس الســـامرائي، دراســـات أدبيـــة عباسـية،ط٢،دار الشـؤون الثقافيـة العامـة، بغداد،٢٠٠٠.

الهوامش

١. الرازي، محمد(٦٦٦هـ)، مختار الصحاح، متبة لبنان، بيروت، ١٩٨٩، مادة سود.
٢. الزبيـدي،محمد(١٢٠٥هـ)، تـاج العـروس مـن جواهر القاموس،تحقيق:علي شيري، دارالفكر للطباعة والنشر، بيروت،١٩٩٤، ص٣٢.
٣. ابـن منظـور، جمـال الـدين(٧١١هـ)، لسـان العـرب، تحقيـق: إحسـان عبـاس، ط٣، دار صادر، بيروت، ١٩٩٣، مادة سود
٤. إبـراهيم أنـيس، وآخـرون، المعجـم الوسـيط، ط٢، مجمـع اللغـة العربيـة، القـاهرة، ١٩٧٢، ص٤٦٠.
٥. ثـروت بـدوي، الـنظم السياسـية، ط١، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٦، ص١٧.
٦. مصـطفى أبـو زيـد، فـن الحكـم فـي الإسـلام، ط١، المكتـب المصـري الحـديث، مصـر، ١٩٨١، ص٢٠.
٧. أيمـن الـورداني، حـق الشـعب فـي اسـترداد السـيادة، ط١، مكتبـة مـدبولي، القـاهرة، ٢٠٠٨، ص٥٣.
٨. محمـود الخالـدي، قواعـد نظـام الحكـم فـي الإسـلام، ط٢، مكتبـة المحتسـب، عمـان، ١٩٨٣، ص٢٤.
٩. ابـن فـارس، أحمـد(٣٩٥هـ)، معجـم مقاييس اللغـة، ط١، دار إحيـاء التـراث، بيـروت، ١٤٢٢هـ، مادة وصي.
١٠. الزمخشري(٥٨٣هـ)،أساس البلاغـة، تحقيـق: محمد باسل، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨، ج٢/ ٣٣٩.
١١. ابـن منظـور، جمـال الـدين(٧١١هـ)، لسـان الدين، مادة وصي.
١٢. إبـــراهيم أنـــيس، المعجـــم الوســـيط، ج٢/ ص١٠٣٩.
١٣. ص٩. سـهام الفريح، الوصـايا فـي الأدب العربـي القديم، ط١، مكتبـة المعـلا، الكويـت، ١٩٨٨،
١٤. محمد خفـاجي، الحيـاة الأدبيـة فـي العصـر الجاهلي، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢، ص١٥٢.
١٥. محمد عطيـة، الأدب العربـي وتاريخـه فـي العصـر الجاهلي، مطبعـة مصـطفى الحلبـي، القاهرة، ١٩٣٦، ص٧٨.

١٦. يونس السامرائي، دراسات أدبية عباسية،ط٢، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ٢٠٠٠، ص٥٣-٥٤.
١٧. محمد الدليمي، جمهرة وصايا العرب، منشورات دار النضال للطلاعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩١، ج١/ ص١٨.
١٨. عبد الرحيم صالح، فنون النثر في الأدب العباسي، ط١، وزارة الثقافة، عمان، ١٩٩٤،ص٣٤.
١٩. ١٩٨٧، ص١ أسامة بن منقذ(٥٨٤هـ)، لباب الآداب، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط١، مكتبة السنة، القاهرة،
٢٠. سهام فريح،الوصايا في الأدب العربي القديم، ص١٧.
٢١. عدنان النحوي، أدب الوصايا والمواعظ، دار النحوي، الرياض، ١٩٩٨، ص١٦٨.
٢٢. ٣٦٧/٣. أبو عثمان الجاحظ(٢٥٥هـ)، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، ط٧، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٨،
٢٣. ابن الأثير (٦٣٠هـ)، الكامل في التاريخ،صححه وراجعه: محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت،١٩٨٧، ٥/٢١٦.
٢٤. ابن كثير، عماد الدين(٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، ط٨، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٩٠، ١٠/ ١٢٥.
٢٥. ابن شاكر الكتبي(٧٦٤هـ)، فوات الوفيات، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٦٣، ١/ ٤٨٧.
٢٦. ابن العماد الحنبلي(١٠٨٩هـ)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، القاهرة، ١٣٥٠هـ، ٢٦٢/٢
٢٧. ابن الطقطقى(٧٠٩هـ)، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، (دط)، دار صادر، بيروت،(دت)، ١٤٩- ١٥٠.
٢٨. ١٨٨٣، ٤٧٣/٢. اليعقوبي، أحمد(٢٨٤هـ)، تاريخ اليعقوبي، دط، مطبعة ليدن، الهند،
٢٩. الطبري(٣١٠هـ)،تاريخ الطبري: تاريخ الملوك الرسل والملوك،تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢،دارالمعارف، مصر، ١٩٦٦، ٨/١٠٥،
٣٠. ٥/٢٢٢،ابن كثير، ١٠/ ١٢٣،ابن عبد ربه،العقد الفريد،شرحه:أحمد آمين،دار الكتاب العربي،بيروت،١٩٨٢، ١/٤٠ ابن الأثير،
٣١. ٢/ ٤٧٣. اليعقوبي(٢٨٤هـ)، تاريخ اليعقوبي،
٣٢. الطبري(٣١٠هـ)، تاريخ الطبري، ٨/ ١٠٥.
٣٣. الطبري(٣١٠هـ)، تاريخ الطبري، ٨/١٠٥- ١٠٦
٣٤. الطبري(٣١٠هـ)، تاريخ الطبري، ٨/ ١٠٦، ابن كثير (٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، ١٠/١٢٦.
٣٥. ٢/٢٣٣، وابن الطقطقى، ص١٧١.
المسعودي(٣٤٦هـ)،مروج الذهب،تح:محمد محيي الدين عبد الحميد، طبعة التحرير،١٩٦٦،
٣٦. ١٠/٧٥. ابن كثير(٧٧٤هـ) البداية والنهاية،

٣٧. محمد سلام، الأدب في عصر العباسيين(منذ قيام الدولة حتى نهاية القرن الثالث)، منشأة المعارف الاسكندرية، ١٩٩٣،ص٢٦.
٣٨. أحمد أمين، ضحى الإسلام،ط٧، مكتبة النهضة، القاهرة، ص١٠٥-١٠٦.
٣٩. ابن الطقطقى،الفخري في الآدب السلطانية، ١٥٩-١٦٠.
٤٠. الطبري(٣١٠هـ)،تاريخ الطبري، ٨/ ٧٥.
٤١. الطبري(٣١٠هـ)، تاريخ الطبري،٨/ ١٠٦
٤٢. محمد سلام، الأدب في عصر العباسيين،ص٦٣
٤٣. اليعقوبي(٢٨٤هـ)، تاريخ اليعقوبي، ٤٣٩
٤٤. ابن الأثير (٦٣٠هـ)، الكامل في التاريخ، ١٦٥/٥-١٦٦
٤٥. الطبري، تاريخ الطبري، ١٠٣/٨.
٤٦. ٨/ ١٠٦ الطبري، تاريخ الطبري،
٤٧. ٤٧٤/٢. اليعقوبي(٢٨٤هـ)، تاريخ اليعقوبي،
٤٨. محمد الدليمي، جمهرة وصايا العرب(وصايا العصر العباسي، ووصايا عرب الأندلس، ١٠٨/٧.
٤٩. ابن الأثير (٦٣٠هـ)،الكامل في التاريخ، ٢٢٢/٥،ابن كثير (٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، ١٠/ ١٢٣،ابن عبد ربه، العقد، ٤٠/١.
٥٠. الطبري، ٨/ ١٠٣.
٥١. ٣٦٦/٣. الجاحظ(٢٥٥هـ)، البيان والتبيين،
٥٢. محمد الدليمي، جمهرة وصايا العرب،١٠٩/٣.
٥٣. عز الدين إسماعيل، في الأدب العباسي الرؤية والفن، دار النهضة العربية ، بيروت١٩٧٥، ١٣١.
٥٤. الطبري، تاريخ الطبري،١٠٦/٨.
٥٥. الطبري، تاريخ الطبري، ١٠٦/٨.
٥٦. الطبري(٣١٠هـ)، تاريخ الطبري،١٠٦/٨.
a. سهام فريح، الوصايا في الأدب العربي القديم،١١٦
٥٧. ابن الأثير (٦٣٠هـ)، ٢٢٥/٥، ابن كثير (٧٧٤هـ)، ١٠/ ١٢٦.
٥٨. ابن كثير (٧٧٤هـ)،١٢٦/١٠.
٥٩. اليعقوبي(٢٨٤هـ)، تاريخ اليعقوبي،٢/ ٤٧٤.
٦٠. اليعقوبي(٢٨٤هـ)، تاريخ اليعقوبي،٢/ ٤٧٤.
٦١. الطبري، تاريخ الطبري،١٠٦/٨.
٦٢. اليعقوبي(٢٨٤هـ)، تاريخ اليعقوبي، ٢/ ٤٧٦.
٦٣. ابن الأثير (٦٣٠هـ)، ٢٢٢/٥
٦٤. ابن الأثير (٦٣٠هـ)،٢٢٢/٥
٦٥. ابن الأثير (٦٣٠هـ)،٢٢٢/٥، ابن كثير (٧٧٤هـ)،١٠/ ١٢٣، ابن عبد ربه(٣٢٨هـ)،٤٠/١.
٦٦. اليعقوبي(٢٨٤هـ)، تاريخ اليعقوبي، ٢/ ٤٧٤.
٦٧. اليعقوبي(٢٨٤هـ)، تاريخ اليعقوبي،٤٧٤/٢.